PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(8): 780-792
ISSN: 1553-6939

The Ego and the Other in Pablo Neruda's Poetry
In the light of comparative study

Dr. Karima Boukhari[1*]
[1:] University of Mohammed Seddik Benyahia, Jijel- Language and Discourse Analysis Laboratory-
karima.boukhari@univ-jijel.dz orcid:https://orcid.org/my-orcid?orcid=0009-0006-3888-4245
Received:15 /07/2024, Published: 30/08/2024

Abstract:

Pablo Neruda stands as a towering figure in Latin American literature. His magnum opus, "Canto General," is celebrated as a pivotal epic that encapsulates the anthropological and geographical essence of Chile, symbolizing the "self." Concurrently, Neruda's work offers a portrayal of the "other." This paper seeks to delve into the duality of the self and the other as depicted in "Canto General," scrutinizing the methods employed by Neruda to craft these images. Furthermore, it examines the interplay between these dichotomous elements within the context of comparative literature, particularly in how one nation's literature can portray another. The study assesses whether Neruda's representation is grounded in historical and factual accuracy or whether it leans towards imaginative depiction, despite drawing on historical records and multiple sources.

Keywords:
Self, Other, Pablo Neruda, Canto General, enemy.

الأنا والآخر في شعر بابلو نيرودا–نماذج من النّشيد الشّامل في ضوء الدّرس المقارن–

د. كريمة بوخاري [1*]

[1]**جامعة محمد الصديق بن يحي بجيجل، الجزائر، karima.boukhari@univ-jijel.dz**

الملخّص:

يُعدّ بابلو نيرودا من أبرز الأسماء الأدبية العالمية ضمن ما يُعرف بأدب أمريكا اللاّتينية، ويعتبر ديوانه "النّشيد الشّامل" من أشهر وأهمّ ما كُتب في قالب ملحمي؛ خلّد من خلاله التّشيلي (بوصفها تمثّل الأنا) من حيث هويتها الأنثربولوجية والجغرافية، كما لم ينس تقديم صورة للآخر في ديوانه هذا. ويسعى هذا المقال للوقوف عند ثنائية الأنا والآخر وتجلّيها على مستوى ديوان "النّشيد الشّامل"، وكيف قدّم نيرودا هذه الصّورة؟ وما العلاقة التي جمعت بين طرفي الثّنائية في إطار ما يُعرف في الدّراسات المقارنة بميدان صورة شعب في أدب شعب/كاتب آخر؟ وهل هذه الصّورة حقيقية يمكن الأخذ بها، أم أنّها مجرّد صورة متخيّلة، حتّى وإن اتّكأ صاحبها فيها على التّاريخ والواقع والوثائق الممكنة/المتعدّدة؟

الكلمات المفتاحية: الأنا،الآخر،بابلو نيرودا،النّشيد الشّامل، العدو.

مقدّمة:

في ظلّ العلاقات الإنسانية وكثرة أسباب تحقّقها تشكّلت العلاقات الثّنائية ما بين البلدان والشّعوب، ويُعتبر الأدب المقارن من أهمّ المجالات التي استوعبت هذه العلاقات الثّنائية في إطار ما يُسمّى: صورة الآخر والأنا، أو ما يُسمّى:ميدان صورة شعب في أدب شعب، أو كاتب آخر. وبحثا في ديوان "النّشيد الشّامل" للشّاعر الأمريكو لاتيني بابلو نيرودا –من أصول تشيلية–استوقفتنا العديد من المواضيع أبرزها؛ صورة الأنا والآخر على مستوى قصائد الدّيوان التي تتراوح بين الطّابع الملحمي والبطولي والتّسجيلي، خاصّة وأنّ النّشيد كتبه الشّاعر في التّغنّي بالتّشيلي وتاريخها وبطولاتها أيام التّواجد الإسباني والانقلابات العسكرية.

تواكب هذه الدراسة فكرة الآخر في ظلّ العلاقات المبنية على الاستعمار؛ إذ يصبح المستعمَر هو الأنا، في حين يمثّل المستعمر صورة الآخر.وهذا ما تجلّى في ديوان "النّشيد الشّامل"لنيرودا، حيث اعتبر الآخر/الإسباني هنا الطّرف الغريب عن الأنا المختلف عنه، الذي يقف دائما في الجهة الأخرى من سيرورة العالم. ولأنّنا اليوم في إطار ثورة منظّمة قوامها وسلاحها الذّاكرة والتّاريخ،فقد لجأ نيرودا للشّعر/الفنّ لحفظ ما في ذاكرة شعوب أمريكا الجنوبية والتّشيلي خاصّة؛فهو الذي سمع شهود العيان، وقرأ كتب التّاريخ والمذكّرات حول المرحلة التّاريخية التي عُنيت بالاستعمار الإسباني لدولة التّشيلي ولغيرها من مناطق أمريكا اللاّتينية، وكذلك لفترة الانقلابات العسكرية التي شهدها الوطن المقدّس الجريح.

إذا؛ سنبحث في تجلّي ثنائية الأنا والآخر على مستوى "النّشيد الشّامل" – في نماذج مختارة–وكيف بدا كلٌّ منهما، وما طبيعة العلاقة التي جمعت بينهما؟ والقصد من هذا العمل بحثٌ في التّمثيل لصورة الآخر في عيون الأنا من جهة، وكذلك السّعي الحثيث من قبلنا ومن غيرنا في العمل على المسكوت عنه في العلاقات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية.إذ يُعتبر الدّيوان صرخة مدوية من الشّاعر نيرودا تجاه الذّاكرة المسكوت عنها في العلاقات الثّنائية (مركز/هامش،مستعمَر/مستعمر...)

أمّا الآخر الذي نبحث عنه؛ فهو الذي يمثّل المستعمر/الإسباني المختلف عن الأنا التّشيلي من حيث الهوية اللّغوية والثّقافية والتّاريخية طبعا.في حين أنّ الأنا هو كلّ ما يترجم الهوية التّشيلية الأمريكية، الهندية الأصيلة أولا، ثمّ المقاومة والرّافضة للتّواجد الاستعماري ثانيا.

ونتيجة العلاقة الكولونيالية؛ فإنّ الرّؤية الأولى للآخر رؤية نفور منه،رفض لتواجده،ثورة على أساليبه القمعية العنيفة في حقّ السّكان الأصليّين(الأنا)، وفي حقّ طبيعة أرض التّشيلي المقدّسة كما يسميها الشّاعر بابلو نيرودا.

أولا– وقفة مصطلحية عند مفهوم الصّورة والأنا والآخر:

1–مفهوم الصّورة:

نتعامل في هذه الدّراسة مع الصّورة الأدبية؛ كمجموعة من الأفكار عن الأجنبي، ومن معانيها أنّها «تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزًى بين منظومتين من الواقع الثّقافي". (باجو، 1998، صفحة 91)، وبالتّالي فالاشتغال على الصّورة يستدعي طرفين في عملية المقاربة وهما الأنا والآخر والتّصوّر الذي يضعه كلّ منهما عن الآخر اعتمادًا على مسبّبات ووسائط تكوّن هذه العلاقة وتصوغها.هناك الكثير ممّا قيل عن الصّورة أهي صادقة؟ وهل تقول كلّ شيء؟أهي حيادية؟، ولكن هناك إجماع أنّ الصّورة كاذبة بالضّرورة نتيجة ارتباطها بأشياء كثيرة بدًءا من هوية النّاظر والمنظور إليه ...الخ.

وعن الهدف من دراسة صور الشّعوب خاصّة؛ فيعود إلى تحديد صور الشّعوب بعضها لدى بعض،وتبيان قيمتها الأدبية أولا،وثانيا إدراك الشّعوب للأوهام التي يكوّنها بعضها حول بعض،فتظهر عقلياتها من تلك الأوهام ما أمكن" (حنون، 2013، صفحة 65)؛فالأمر في طياته يحمل الكثير من الأهداف الإيجابية التي في ظاهرها تأكيد لقوّة الحوار والتّسامح ورفض لمنطق القوّة والسّيطرة.

2- مفهوم الأنا:

قبل المرور إلى الحفر في مصطلح الأنا-الذي تلقّفته العديد من المجالات المعرفية(علم النّفس والفلسفة...) -لابدّ أن ننطلق من العلاقة الجدلية بينها وبين الآخر،وفرضية ضرورة وجود أحدهما لوجود الآخر،وأنّنا في الأصل نتعامل مع تمثيل أو صورة الآخر في عيون الأنا، وليس مع الآخر في حدّ ذاته؛فالأمر يتعلّق بالصّورة الأدبية المتخيّلة التي أقرّتها الذّات/الأنا عن الآخر المخالف لها،المختلف عنها،قبولا أو رفضا.

وعموما " لا يمكن أن توجد الأنا بدون الآخر والعكس صحيح،فهما وإن تباعدتا وتنابذتا فيما بينهما سلبا أو إيجابا؛ بالنّظر إلى علائق القوى التي تمنح الغلبة لطرف على حساب الطّرف الآخر،وغالبا ما ينظر بالاحتكام إلى التّجارب التّاريخية، إلى الآخر بصفته عدوّا يشكّل على الدّوام تهديدا للهوية الذّاتية...» (الداهي، 2013، صفحة 11). وهذا ما سنبحث في تفاصيله في ديوان "النّشيد الشّامل" لبابلو نيرودا.

3-مفهوم الآخر:

ترتبط مفاهيم الآخر كذلك بتعدّد مجالات مقاربته بين (علم النّفس والأدب المقارن وغيرهما)،ومن ضمن التّعاريف المقترحة لمصطلح الآخر أنّه " مختلف بشكل أساسي عن "نحن" وبالنّسبة لأرسطو؛ فإنّ الآخر المستبعد هو الغريب الذي لم يتمكّن من استخدام وفهم اللّغة المشتركة اليونانية ..." (هارلي، 2008، صفحة 54)، يقع هذا الآخر عمومًا في الجهة المقابلة للأنا؛وبالتّالي فهو يخالفها في كلّ شيء تقريبا، وهذا ما يصنع تميّزه عنها، رغم ارتباطهما الوثيق ببعض؛فلا يتحقّق وجود أحدهما إلاّ بوجود الآخر.

ثانيا- صورة الأنا في ديوان: النّشيد الشّامل" لبابلو نيرودا:

1 -صورة الأنا البطل(المناضل):

الظّاهر أنّ صورة (أنا) بابلو نيرودا واضحة المعالم، بيّنة التّفاصيل، محدّدة السّمات؛ دولة التّشيلي الوطن؛ المملكة العذبة العذراء التي خصّها بابلو نيرودا بمقاطع ملحمية أرّخت لتاريخها،ورتّبت طبيعتها العذراء الخلاّبة وسردت حكايات وبطولاتِ شعبها الكثيرة ضدّ المستعمر الإسباني،وهذا يتّضح في الكثير من القصائد، سواءٌ على مستوى عناوينها أو على مستوى مقاطعها المتعدّدة.ويتجلّى الأنا عند بابلو نيرودا من خلال القصائد الموجودة على مستوى النّشيد الشّامل من خلال تعدّد هوياتي، نذكر منه:

أ- **الهوية التّاريخية:** وهي هوية سياسية، يعود فيها نيرودا إلى أصل التّشيلي، ويشير إلى الهنود الحمر السّكّان الأصليّين وطبيعتهم وحضارة المايا،كما يوضّح أيضا مرحلة تاريخية مهمّة في تاريخ التّشيلي؛مع الغزو الإسباني والانقلابات الدّاخلية التي شهدها القرن التّاسع عشر كما نعرف.وهي هوية مبثوثة على مدى القصائد التي يقدّم فيها نيرودا صورته عن الآخر/العدوّ.

إنّ الحديث عن تجلّي الأنا تاريخيا هو من باب ماله علاقة مباشرة بالنّشيد الشّامل الذي أراده نيرودا ملحمة الأصل فيها التّغنّي بالتّشيلي وأمجادها" في البداية فكّرت بالنّشيد فقط كنشيد لتشيلي

كملحمة مكرّسة لتشيلي...» (نيرودا، 1976، صفحة 28)، وبالتّالي فجميع مقاطع النّشيد لها وظيفة واحدة هي خدمة الوطن/ تشيلي والتّعريف به وبنضاله وطبيعته الخلاّبة العذراء. من ذلك حديثه عن محطّات النضال السّياسي والعسكري ضدّ الإسبان، لتبدو شخصية الإنسان التّشيلي شخصية قومية وقوية لا ترضى بالذّل والمهانة، ويتجلّى ذلك في العديد من القصائد، أهمّها قصيدة (الأرض المقاتلة وقصيدة الأرض والإنسان يتّحدان) مثلا؛ إذ يشير نيرودا إلى:

إيه، يا أراوكانيا، يا حزمة سنديان دافق

أيّها الوطن القاسي...

لم تكن سوى حناجر معدنية؛

وأكفّ من جليد وقبضات

اعتادت قطع الصّخور

كنتَ أيّها الوطن سلام الصّلابة

وكان رجالك جلبة

كانوا أطيافا لاذعة، ريحا هوجاء (نيرودا، 2002، صفحة 108).

وعن سرّ البطولة وتجلّياتها؛ فقد ارتبطت بأسماء أبطال وطنيين وآخرين قوميين ذكرهم نيرودا منهم؛ البطل (لاوتارو) وهو زعيم أراوكاني خاض معارك عديدةً ضدّ الإسبان وانتصر فيها، وأثّث نيرودا قصائد كثيرة تحمل اسم البطل (لاوتارو1550،لاوتارو بين الغزاة ولاوتارو ضدّ القنطورا) عبر سرد ملحمي لمواقفه تجاه العدوّ(الآخر) واصفا قوته وشجاعته ووطنيته التي انعدمت في غيره آنذاك مع معاركه ضدّ القائد الاسباني بالدّيبيا؛

صباه كان هيمنة

وكان شبابه ريحا موجّهة

لقد أعدّ نفسه مثل رمح طويل

ودرّب أقدامه بين الشّلالات

نفّذ اختبارات الغواناكو

ترصّد طعام النّسور

واصطبغت يداه بالانتصارات. (نيرودا، 1976، صفحة 147)

وصورة الأنا/ البطولة ترسّخت مع العديد من الأسماء الأخرى(كالقائد توباك آمارو،والبطل التّشيلي القومي برناردو أوهيجينس ريكيلمي، وخوسيه دي سان مارتين، وخوسيه ميغيل كابريرا، وغيرهم...).

ب- **الهوية الأنثربولوجية**: وهي هوية تعكس شدّة الارتباط الموجود بين الأنا التّشيلي ومعه الأمريكي اللاّتيني بالأرض وبملامح أسطورية،حيث تتعامل الذّات مع قوى فوق واقعية أسهمت هي الأخرى في بروز مقاومة تاريخية قوية ضدّ المستعمر/مع تدخّل الآلهة والتّمازج بين قوى الطّبيعة مع قوى الإنسان(الرّؤية الواقعية السّحرية المنتشرة في الأجواء الأمريكو لاتينية عموما).

ت- **الهوية الجغرافية:** تتّضح أكثر هذه الهوية من خلال حديث بابلو نيرودا عن بنية المكان من خلال ذكر البحار والوديان، وقد كتب الشّاعر الحالم عن أهمّ معالم الطّبيعة هناك، فوصف نهر أنهواك المكسيكي ومعه نهر أورينكو(النّهر الغزير) ونهر بيوبيو الشّهير. لينتقل بعدها إلى شلاّلات تيكينداما الكولومبية، ومعها ذكر أشجار الكابلي وشجرة التّيبيو القرمزية، وإلى جانبها تقف شجرة الأروكاريا(التي يصل طولها إلى خمسين مترا).ليمرّ إلى أنواع من زهور الجاكاراندا ...الخ.كما انتقل إلى بعض الطّيور النّادرة منها طيور الكاردينال والتوكان والكيتزال.ولم يغفل نيرودا عن إثبات عدد كبير من أسماء النّفائس التّشيلية التي كانت سببا في الغزو الإسباني للتّشيلي، منها الفاندوم والبزموث إلى النّحاس والجمشت وحجر الأبال...وغيرها.

كلّ هذا من باب إثبات الاختلاف الجلي والواضح بين الذّات النّاظرة والآخر المنظور إليه، ومن باب تأكيد تميز التّشيلي الذي جعلها مطمعا للمستعمرين الأنذال،الذي يدخل في إطار ما يُسمّى: موقف الرّهاب la phobie،حيث يقدّم الأجنبي/الآخر (إسبانيا الغازية) في صورة متدنّية مقابل تفوّق الثّقافة الأصلية(المجتمع التّشيلي بكلّ أطيافه) (باجو، 1998، الصفحات 107-108). أو كما أشار إلى ذلك محمد الداهي بقوله"اعتبار ثقافة الأنا متفوقة على ثقافة الآخر" (الداهي، 2013، صفحة 7)

2- صورة الأنا الخائن للوطن والوطنية (الأنا المضادّ):

وبعد أن تحدّثنا عن صورة الأنا الوطني، وكيف جسّدها ديوان "النّشيد الشّامل"،لا يفوتنا الوقوف عند الأنا المعاكس؛ وهو الخائن للوطن والوطنية؛ خيانة ترتبط بالوجود الاستعماري تارة،وبالانقلابات العسكرية الدّاخلية التي تثبتها كتب التّاريخ والاقتصاد تارة أخرى.

أ- **شخصية الأنا الخائن للوطن (فترة الاستعمار):**

وهم كُثر، وقد جمعهم بابلو نيرودا في قصيدته (الحروب)، حيث جمع فيها هوية العدوّ الخائن وصفاته التي لا يختلف عليها اثنان عاقلان طبعا.

الماغريون، وبيثاريون، وبيلترانيون

تطاعنوا بالخناجر متقاسمين الخيانات التي اقتنوها

لقد سرقوا المرأة والذّهب

تنازعوا السّلطة

فصاروا يشنقون بعضهم بعضا في الزّرائب

ويصفون بعضهم بعضا في السّاحة

ويعلّقون بعضهم بعضا في الكابيلدو (نيرودا، 2002، صفحة 104)

ويقول في مقطع آخر؛

يا جزّاري الغضب والمشنقة

يا طغاة

قدمتم في رماد الإنكا الذّهبي

مسرحية المستعمرين الجهنميين

النّهب ذو الحظّ الأخضر

الشّبق المشحّم بالدّم

الجشع ذو الأظفار الذّهبية

الخيانة بأنيابها الخسيسة

الصّليب الذي مثّل زحافة جشعة

المشنقة على خلفية من الثّلج (نيرودا، 2002، صفحة 105)

وفي هذه الأبيات إشارة واضحة إلى أهمّ صفات العدوّ؛ من جشع وسرقة وخيانة ونهب لكلّ الثّروات التي احتضنتها تشيلي الوطن المقدّس.

ب- **شخصية الأنا الخائن للوطن (فترة الانقلابات العسكرية):**

تتحوّل الأنا في الكثير من محطّات ديوان "النّشيد الشّامل" إلى آخر منتمٍ لجغرافيا واحدة(التّشيلي) للوطن، ولكنّه يعمل ضدّ مصلحة الوطن والوطنيّين في الدّاخل. وقد وصف الشّاعر بابلو نيرودا هذه الطّبقة بـ(الأعداء) صراحة، حيث وصف هؤلاء بالقتلة وحاملي السّلاح ضدّ إخوانهم، وبقتلة الصّبية. والاتّهام الأكبر هو الخيانة، لذلك فجزاؤهم القصاص، يقول نيرودا:

أطالب بالقصاص

للذين ضرّجوا الوطن بالدّماء

من الخائن الذي ارتقى فوق الجريمة

أطالب بالقصاص (نيرودا، 2002، صفحة 343)

وفي القصيدة دعوة صريحة من نيرودا ومن كلّ وطني شجاع إلى القصاص من هؤلاء الخونة ضِعاف الهِمم والقتلة،ولا يكتفي بوصفهم وسرد أفعالهم القبيحة، بل ذهب إلى سرد تبعات/آثار ما فعلوه على الوطن الجريح (فتحوّل الشّعب من الغناء إلى البكاء بسبب هؤلاء) يرفض هو وجميع الوطنيّين داخل التّشيلي وخارجها سياسة الصّلح والتّسامح، ويطالب بالزّجّ بهم في السّجون وقتلهم والتّنكيل بجثثهم كما فعلوا مع إخوانهم في الأرض والدّم واللّغة والثّقافة،يؤكّد نيرودا ذلك قائلا:

لا أريد أن يمدّوا إليَّ يدهم

لا أريد أن ترسلوهم سفراء

ولا أن تبعثوهم بهدوء إلى بيوتهم

أريدهم أن يحاكموا هنا (نيرودا، 2002، صفحة 344)

ويدعو للإبقاء على سياسة النّضال في كلّ مكان من التّشيلي (المصنع والحقل والمناجم...). والأمثلة من الدّيوان كثيرة جدّا، منها ما أشار إليه نيرودا في صيغة الجمع، كما في قصيدة الأعداء السّابقة وهي خيانة موجودة تثبتها كتب التّاريخ عادة، ولا مبرّر لها إطلاقا.

ومنها ما ذكره بالاسم مباشرة، وأبرز مثال عن هذا ما بثّه بابلو نيرودا في أبيات قصيدة (غونثالث بيديلا،خائن تشيلي(خاتمة)1949م).

تظهر صورة هذه الشّخصية في قصيدة تحمل العنوان ذاته (غونثالث بيديلا،خائن تشيلي(خاتمة)1949م. وللعلم فإنّ شخصية غونثالث ليست مُتخيّلة، بل شخصية تاريخية واقعية،عايشها بابلو نيرودا فترةً من الزّمن.يتعلّق الأمر بالرّئيس غابريال غونثالث بيديلا1947م وخلافه مع نيرودا مسئول حملته الانتخابية، وقد دار عليه وأمر باعتقاله لينتقل بعدها نيرودا إلى الأرجنتين هروبا منه.

وتمثّل هذه الشّخصية صورة الأنا الخائن الذي لم يبخل نيرودا من تأريخ أسمائهم وأفعالهم الشّيطانية وخصالهم اللاّوطنية في ديوانه هذا حفاظا على الذّاكرة التّاريخية الوطنية من الامّحاء والزّوال.والمتأمّل أبياتَ القصيدة سيستوقفه مدى قبح أفعال الخائن غونثالث الذي ارتكب جرائم شنعاء على أرض الوطن الأبيض الثّلجي/الوطن الأراوكي كما يصفه ويسمّيه نيرودا.

ثمّة خائن يبتسم فوق عرش متعفّن

ويترأّس الخسّة في وطني

إنّه غونثالث بيديلا،الفأر الذي ينفض (نيرودا، 2002، صفحة 361)

ما يُحسب لصالح نيرودا هو تسمية الأشياء بمسمّياتها، وفضح الخونة بالاسم الكامل وبسرد أعمالهم.إنّ القصيدة سيرة ذاتية أدبية للخائن غونثالث؛ ويمكن اقتراح عنوان آخر لها (سيرة خائن). وقد هيمن على تقديم بابلو نيرودا مواصفات قاسية تعكس هول ما فعله الرّجل في دروب أمريكا في الوطن الأبيض الثّلجي، الوطن الأراوكي.

لقد خان كلّ شيء

صعد على أكتاف الشّعب كفأر

ومن هناك راح يقضم راية وطني المقدّسة

هو الذي باع شعبي

سمّم وطني

أقام معتقل بيساو،محق نجمتنا

بعد أن يكون الزّمن قد محا عاره

بعد أن ينظّف وطني (نيرودا، 2002، الصفحات 361-362)

وكأنّي بنيرودا يخاطب غونثالث قائلا: هنا على صفحات ديوان "النّشيد الشّامل" سيجدون اسمك ومعه إثبات خيانتك للشّعب والوطن والرّاية...

لكي يجدوا أيضا اسم الخائن

جالب كأس الاحتضار الذي رفضه شعبي (نيرودا، 2002، صفحة 363)

ولا يكتفي بسرد سيرة خيانة غونثالث،بل ينهي القصيدة بدعوة تتكرّر على مدى قصائد الدّيوان ككلّ، وهي دعوة الشّعب للانتفاضة في وجوه مثل هؤلاء الخونة الأعداء.

3 –صورة الأنا في بُعدها القومي:

يكشف "النّشيد الشّامل" في آن واحد عن الكاتب الملتزم، عن كاتب الكلمة والفعل،وعن الشّاعر المتحضّر،ولكنّه يكشف في المقام الأول عن شاعر الأرض الهسبانو–أمريكية الذي لا يذوب في الطّبيعة، بل يتأمّلها من أجل رسم لوحات ضخمة" (مورينو، 1987، الصفحات 267-268) . تتحمّل الأنا في كثير من الأحيان بحمولات القومي والمحلّي (الأمريكو لاتيني) مقابل الآخر الإسباني نتيجة الحرب التي دارت رحاها في أرجاء أمريكا الجنوبية جميعها. ويظهر هذا التّوجّه فيما قاله بابلو نيرودا عن ديوانه "النّشيد الشّامل":" في البداية فكّرت في النّشيد الشّامل فقط كنشيد تشيلي كملحمة مكرّسة لتشيلي، كنت أريد أن أحتضن كلّ شيء: وصف النّاس الذين يعيشون هنا، ماذا ينتجون، وطبيعة البلاد الحية،ولكنّني لم ألبث أن وجدت نفسي في وضع معقّد لأنّ جذورنا نحن التّشيليين تمتدّ عميقًا تحت الأرض وتظهر في مناطق أخرى،فأوهينكر يمتدّ بجذوره إلى ميراندا ولاوتارو من أقرباء كواوتيموك..." (نيرودا، 1976، صفحة 28).

وتتجلّى هذه الرّوح القومية ومبدأ الالتزام – في شعر بابلو نيرودا–بالقضية الأمّ/أمريكا اللاّتينية كاملة وليس الوطن فقط من خلال قصيدة **كواوتيموك** وغيرها، إذ يظهر بوضوح في قصيدة كواوتيموك1520 التي يخاطب من خلالها نيرودا آخر ملوك الإستيك المدعو (كواوتيموك) الذي دافع بشراسة عن المكسيك أمام الغزو الإسباني مع الفاتح (هيرنان كورتس) الذي أسره وعرضه للتّعذيب الوحشي، ثمّ أعدم كبطل قومي شرس يمثّل الصّورة الإيجابية لصورة الأنا الأمريكو لاتيني. يقول نيرودا واصفا بطولة كواوتيموك:

أيها الأخ الفتي
يا من لم تنم منذ أزمان وأزمان
ولم تجد العزاء قطّ
أيّها الشّابّ المنتفض في دياجير
أتلقّى هبة وطنك العاري (نيرودا، 2002، صفحة 131)

الملاحظ على هذه الأبيات ما ذكره نيرودا من أوصاف للبطل كواوتيموك فهو (الأخ، وهي أخوّة بدافع الإنسانية أولا، والقومية ثانيا والجوار ثالثا)،فهو الشّجاع الذي بذل النّفس في سبيل الحرّية والسّيادة الوطنية، (الشّاب المنتفض) وهي دلالة على قوّته وجبروته وإصراره على طرد المستعمر الإسباني من أرض المكسيك،وبالتّالي فالصّورة هنا مبنية على الوصف الجسمي والنّفسي للشّخصية كواوتيموك وهي أوصاف تشابه فيها الكثير من أبطال التّشيلي ومناطق أخرى من أمريكا اللاّتينية، وفي المقاطع السّابقة يقدّم الشّاعر نيرودا صورة شخصية كواوتيموك مشابهة للصّورة النّمطية للمناضلين في العالم؛إذ يجمع بين صفات الشّباب والعنفوان والقوّة والتّضحية والانتفاضة ضدّ المستعمر في كلّ الأوقات،مثله مثل العديد من أسماء المناضلين في العالم أمثال (الأمير عبد القادر الجزائري ورجال الثّورة التّحريرية المجيدة...). يواصل نيرودا سرد تفاصيل مسار البطولة قائلا:

فكنت وسط شعبك
خبزا وجذرا، رمحا ونجما

الغازي أوقف مسيرته

فليس هذا "موكنتيزوما" المتوفي

وإنّما هو البرق وسلاحه

ريشة كيتزال زهرة الشّعب

ناصية الرّيش المشتعلة بين السّفن

أيها الأسير المنتصر

عبر أبعاد مملكتك

كنت مثل عمود شامخ

فوق الأرض المحزونة (نيرودا، 2002، الصفحات 132-133)

وتذكر شخصية موكونتيزوما مثالًا على خائن الوطن الذي رغم قوّته استسلم للعدوّ القائد الإسباني كورتس، ولكنّ شخصية كواوتيموك تحمل في طياتها حمولات أسطورية؛ وفيها شبه كبير بالإله المكسيكي كيتزال وديانته القائمة على الحبّ وتعليم الزّراعة والفلاحة للنّاس. وذاك كان ديدن كواوتيموك بين شعبه.

ثالثا – صورة الآخر وتجلّيه في النّشيد الشّامل لبابلو نيرودا:

1 – الآخر /العدو: يأتي"العدوّ دائما هو الآخر، إلاّ أنّه لا يمكن تصنيف كلّ الآخرين باعتبارهم أعداء مهما كانت أهمّيتهم من وجهة نظر هويتنا نحن..– كما يشير الباحث أيضا- ،وبمتابعة أوفيرزور (ofer zur) يمكننا التّمييز بين نمطين رئيسيين من أنماط العدوّ:الجدير والشّرير.فالعدو الجدير شريك مساوٍ في حرب مرتبطة بالطّقوس أو في مباراة ودّية.ومثل هذا الوضع لا يحظى به أبدًا العدوّ الشّرير الذي يعتبر مختلفا عنّا في الأساس. فلا يمكن أن يكون لنا أيّ شيء مشترك مع العدو الشّرير.علينا أن ندمّره:وهذا ليس مبرّرا، بل هو واجب أسمى.والعدوّ الشّرير في الواقع هو عدوّ الله، والحرب ضدّه حرب مقدّسة.ويجب استئصال العدوّ من على وجه الأرض حتّى يكون إلهنا آمنا." (هارلي، 2008، صفحة 56) ،وفي الديوان محطات كثيرة استوقفتنا تتابع صورة الآخر بوصفه عدوا للأنا ؛عداوة ارتبطت بالوجود الكولونيالي الذي ساد دول العالم ككل.

1-2-شخصية القائد العسكري والجندي:

نجد في الفصل الثّالث من النّشيد الخاصّ بالغزاة احتفاء بتاريخ تشيلي تحديدا، وفضحا لهمجية الآخر / الإسباني كمستعمر يشبه في أفعاله ومواقفه الكثير من المستعمرين الذين نعرفهم (القمع والتّهديم والقتل...)، حيث نجد إدانة قاسية للهمجية التي احتفل بها الغزاة الإسبان، ولممارسات السّلب والدّناءة التي لجأ إليها قادتهم العسكريون، ولحماقة رجال الدّين وتعصّبهم (رفع القسّ ذراعه/وأحرق الكتب في السّاحة/باسم ربّه الصّغير) ليس هذا وحسب ..." (نيرودا، 2002، صفحة 9)

هيمنت الصّورة السّلبية للآخر/الإسباني على مستوى قصائد "النّشيد الشّامل" لنيرودا، انطلاقًا من الإطار التّاريخي الذي جمع بين الأنا والآخر، والأمر يتعلّق بحرب إسبانيا في بلدان أمريكا اللاّتينية، وتحديدًا على مستوى دولة التّشيلي، وهي نظرة تعكس الصّورة النّمطية للمستعمر عند الشّعوب المستعمرة؛ فهو المجرم والعدوّ والقاتل والظّالم كما سنرى.

ففي ديوان "النّشيد الشّامل" لبابلو نيرودا توظيف زاخر وكثيف لفكرة **الآخر/العدوّ** باعتباره عدوًّا شريرا يستدعي من سكان التّشيلي وغيرها من بلدان أمريكا اللاّتينية الصّحوةَ والاتّحاد لإخراجه من الوطن المقدّس، والقضاء عليه بكلّ الوسائل الواقعية واللاّواقعية، القوى الوطنية والقوى السّحرية الما ورائية؛ حيث تتدخّل الآلهة والأساطير لنهضة سكّان الوطن المقدّس (إلى الأراضي العذبة–المملكة العذبة) كما يسمّيها نيرودا.

ونضرب مثالاً بقصيدة **بالديبيا** كمثال عن صورة الآخر/العدو الشّرير؛ إذ عنوان القصيدة ينبئ صراحة عن موضوعها من خلال سرد بابلو نيرودا لهوية بالديبيا؛" وهو فاتح إسباني قاتل في فنزويلا ثمّ في البيرو تحت إمرة بيشارو وبقيادته تمّ غزو تشيلي ...ارتكب عدّة مجازر ضدّ الهنود في أراوكو، ونهايته كانت على أيديهم، وذلك من خلال بتر ذراعيه وأكلها أمام عينيه." (نيرودا، 2002، صفحة 110). النّهاية الماسأوية لبالديبيا كانت نتيجة أفعاله وظلمه لهنود أراوكو. فالآخر تمثّل هنا في شخصية بالديبيا القائد الإسباني الذي يصفه نيرودا بالدّخيل ولا يكتفي بهذا، فهو المجرم الذي (قطع وطني بسيفه كما يقول الشاعر) ،ويحزّ في نفسه انقسام التّشيلي بسبب المحتلّ الإسباني الغاشم الذي سفك دماء الأراوكيين/ الهنود الأصليين بيديه الملوّثتين.

إنّه الجلاّد الذي دام تواجده هناك ثلاثة قرون؛فالكاتب يسرد بألم واقعةَ استيلاء بالديبيا على التّشيلي وما انجرّ عنها من قتل وهدر لأرواح السّكّان الأصليّين،ويشير إلى تحالف هويلين الذي راح ضحيته سبعة أمراء مفاوضين، لكنّهم سجنوا وقطعت رؤوسهم على يد الجندي النّذل (إنييس دس سواريث) /وهو مثال آخر لصورة الآخر/العدوّ في ديوان "النّشيد الشّامل" لنيرودا،وظنّ هؤلاء الإسبان أنّهم يطفئون بذلك شرارة المقاومة ولكن هيهات؛فالاتّحاد تحقّق بين الشّجر والحجر والرّمح والصّياد والسّاحر والملك،وهكذا ولدت الحرب الوطنية. إنّ ما فعله هؤلاء المحتلّون (الآخر/العدوّ الشّرير) لم يكن هيّنا؛يقول نيرودا مثبتًا تلك الصّورة النّمطية **للمستعمر في عيون المستعمَر**:

واغتيال الصّبية المحاربة

بقفّازه الملطّخ بالدّم

علم على حجارة الوطن،

المملوء بالقتلى

والعزلة والقروح. (نيرودا، 2002، صفحة 113)

كما قال بابلو نيرودا؛ فالآخر هنا:(رجل السّلاح والجندي النّذل) حاول بكلّ الطّرق الوحشية القضاء على الوطن والوطنية،ولكنّه زاد من شرارتها من دون أن يقصد ذلك؛فأسهم في اتّحاد عوالم الحقيقة والسّحر للظّفر بالفوز وإخراج العدوّ/الإسبان من أرض أراوكانيا.

والأمر نفسه وقع في قصيدة (الرّأس على سنان رمح)لنيرودا،حيث يخاطب من خلال أبياتها الآخر القائد (بالبوا) الذي يشبه في ملامحه الآخر الذي نعرفه جميعا،المتّصف بالعنف والقتل والتّدمير وهي ملامح موجودة عند القائد العسكري كورتس وألفا رادو وخيمنث دي كيسادا، وغيرهم ممّن ذكر هم في ديوانه.قصيدة تحمل اسمه؛

لقد حملت الموت والدّمار

إلى أطراف الأراضي الوسطى العذبة (نيرودا، 2002)

والحيوان دخل ضمن قائمة الآخر/العدوّ الشّرير، فالكلب ليونشكو ذو الشّفة الدّامية الملعون وهو وصاحبه. يخاطبه وهو في لحظات موته بذكر تفاصيل كثيرة تعكس (الأنا/جغرافيا وثقافيا) (أتشعر بالشّذّا المذهّب، شذا المملكة العذبة المحطمة).

-2-الآخر(الصّديق)/غير العدوّ:

أ -رجل الدّين:

لا يشكّل الآخر صورة العدوّ دائما؛ سواء في الواقع أو على مستوى النّصوص الأدبية النّثرية منها والشّعرية،ولا يخلو النّشيد الشّامل من هكذا نماذجَ بشرية، كما تُسمّى في الدّراسات المقارنة التي تعكس تصوّرًا ما لشخصية ما،ونقصد هنا شخصية رجل الدّين (فراي بارتولومي دي لاس كاساس) وهو"مبشّر كاثوليكي إسباني، لُقّب برسول جزر الهند وحامي الهنود بسبب مواقفه من الممارسات الوحشية للفاتحين الإسبان،والتي أرّخها في كتابين مهمّين له بعنوان: (قصّة تدمير بلاد الهند والتّاريخ العامّ لبلاد الهند) ، وفي القصيدة يصف نيرودا الأب/رجل الدّين بما يأتي:

ينبثق ضوء قديم، ناعم وقاس

مثل معدن،مثل نجم مدفون

أيها الأب بارتولي،شكرا لهذه الهدية

في منتصف اللّيل الفجّ

شكرًا لأنّ شعاعك كان عصيًّا على الهزيمة

جميعها تُولد من جديد تحت ظلّك

فأنت تؤسّس للأمل من تخوم الاحتضار

أيّها الأب

من حسن طالع الإنسان ونوعه

أنّك أتيت إلى هذه المزرعة (نيرودا، 2002، الصفحات 134-135)

كنت واقعا بين أشباح دموية

كنت سرمدية الرّقة

تحول أمّلك

إلى أسلحة ضرورية

النّضال الفردي أصبح غضنا

والبكاء غير المجدي اتّحد في حزب (نيرودا، 2002، صفحة 136)

يشير نيرودا إلى الأب رجل الدّين الكاثوليكي ودعواه المتكرّرة للسّلام والتّصالح والتّسامح مع العدوّ الإسباني بداعي الإنسانية، ولكنّه قرّر تغيير لغة التّسامح إلى لغة السّلاح كما قال نيرودا: (المقاومة الفعّالة/ والقلب المسلّح) ، وفي هذا المسعى اتّهم الأب من قبل أبناء جلدته بـ (الكاذب والمحرّض والخائن)، أو كما قال نيرودا: (ليس له وطن إنّه يخون) (نيرودا، 2002، صفحة

.(137

يستدعي الشّاعر شخصية الأب من جديد ليشكو لها حاضر التّشيلي الدّاخلي الدّموي ما بين الانقسامات الدّاخلية والانقلابات العسكرية:

أدخل معي اليوم، يا أبتاه إلى هذا البيت

وسأعرض عليك رسائل شعبي وآلامه

والإنسان المطارد فيه

سأعرض عليك الآلام القديمة نفسها (نيرودا، 2002، صفحة 138).

وفي القصيدة إشارة قوية لفكرة تداخل الأديان، وتحاورها وتفاعلها دائما وأبدا، ودعوتها وسعيها إلى تحقيق وتوفير الخير للجميع. كما أنّ المقطوعات السّابقة تثبت أنّ الأديان تدعو إلى السّلم والتّصالح ولكنّها لا تنفي مطلقا حقّ الشّعوب في استرداد سيادتها بالقوّة وحمل السّلاح كما فعل الأب فراي بارتولومي دي لاس كاساس، الأب الذي يمثّل الرّوح الحضارية القابلة للآخر، المنفتحة عليه المتحاورة معه، المساندة له في حربه.ويشبه الأب فراي بارتولومي دي لاس كاساس في مواقفه القسّ الفرنسي المونسنيور ديبوش في دفاعه عن الأمير عبد القادر الجزائري كما ذكره واسيني الأعرج في رواية الأمير.

ومع نموذج شخصية رجل الدّين تتّضح فكرة ضرورة التّحاور مع الآخر المختلف عنّا والتّواصل معه،وعدم نبذه مطلقا؛ خاصّة وقد أبدى الرّجل تعاطفا كبيرا مع السّكّان الأصليّين المضطهدين من خلال مساندته لهم في معركتهم الكبرى،واندماجه معهم كلّية في الحياة اليومية، وأبان عن موقفه الرّافض والكاره للممارسات الاستعمارية.

– خاتمة:

وبعد ما قدّمناه في ثنايا هذه الدّراسة من الإحاطة بمصطلحي الأنا والآخر من حيث المفهوم والعلاقة التي تجمع بينهما، ودور الوسائط التّاريخية خاصّة في تحقق هذه العلاقة، خلصنا إلى مجموعة من النّتائج أهمّها:

– لم يخرج الشّاعر بابلو نيرودا عن النّسق النّمطي والصّورة المكرّسة اجتماعيا وتاريخيا لتمثيل صورة الآخر/المستعمر في عيون الشّعوب المستعمرة.

– تجسّد الآخر في عديد من الشّخصيات (القائد والجندي) وجميعها تتشارك في أساليب العنف والقتل وأشكال التّعذيب والقهر.

– تمثّل الشّخصيات الموجودة المشار إليها نماذج بشرية تحمل تصوّرا نمطيا موحّدا عن الآخر العدوّ.

– عاد بابلو نيرودا إلى كتب التّاريخ والاستعانة بالشّهود العيان لجمع مادّة النّشيد الشّامل، وبالتّالي فقد استثمر رؤية جماعية لاستجلاء العلاقة ما بعد الكولونيالية بين المركّز والهامش (المستعمر والمستعمر).

– رغم العودة إلى كتب التّاريخ والمذكّرات الوطنية حول ما جرى على الأراضي التّشيلية قديما إلاّ أنّ ما قدّمناه واقترحناه على صفحات هذه الدّراسة يمثّل الصّورة والتّمثيل للآخر وليس هو الآخر.

قائمة المصادر والمراجع:

1) بابلو نيرودا. (2002). *النشيد الشامل، ترجمة: صالح علماني.* (ط1) دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.
2) بابلو نيرودا. (1976). عن شعري وعن حياتي، ترجمة: هشام حمادي. *مجلة الآداب الأجنبية ، 3*، 28.
3) دانييل هندري باجو. (1998). *الأدب العام والمقارن، ترجمة، غسان السيد.* (ط1) دمشق–سوريا: اتحاد الكتاب العرب.
4) سيزار فرنادث مورينو1987، أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، تر: أحمد حسان عبد الواحد، مراجعة شاكر مصطفى، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون.
5) فرناندث مورينو. (1987). *أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة: أحمد حسان عبد الواحد، مراجعة: شاكر مصطفى.* الكويت: عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون.
6) عبد المجيد حنون. (2013). *صورة الفرنسي وصورة الفرنسية في الرواية المغاربية.* (ط2) دار بهاء للنشر والتوزيع.
7) فيلهو هارلي. (2008). *مفهوم ومواريث العدو في ضوء عملية التوحيد والسياسات الأوروبية،عن الطاهر لبيب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه.* (ط2) بيروت–لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
8) محمد الداهي. (2013). *صورة الأنا والآخر في السرد.* (ط1) القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.